محاضرات في تاريخ الفكر الاجتماعي والسياسي في الفترة المعاصرة / السنة الثالثة/ تاريخ عام

الأستاذ: بن حمودة مراد

المحاضرة الأولى: جذور الفكر الاجتماعي في العصور القديمة والوسطى

أولا: جذور الفكر الاجتماعي الأوربي في العصور القديمة:

يقصد **بالفكر الاجتماعي** هي الأنشطة والفعاليات والممارسات وأشكال التفكير البسيط التي عرفتها المجتمعات البشرية منذ بداية نشأتها والتي ما لبثت أن تطورت وتنامت بالتدريج عبر المراحل التاريخية المتعاقبة، ويمكن القول أن أول محاولة للبحث في الإنسان وعلاقاته بغيره وموقع الفرد منه ودور كل منهما في تنظيم سلوك الإنسان ضمن نطاق الجماعة بدأت منذ القرن الخامس قبل الميلاد في إطار الحضارة اليونانية ومعها بدأت مسيرة الفكر الاجتماعي التي أفضت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى تأسيس علم الاجتماع.

بينما **علم الاجتماع** هو ذلك العلم الذي يدرس الظواهر والحوادث الاجتماعية دراسة موضوعية تحليلية الهدف منها استخلاص القوانين التي تخضع لتلك الحوادث .

1 - الفكر الاجتماعي في ظل الحضارة اليونانية:

أ - **الفكر الاجتماعي عند السوفسطائيين:** بدأ اليونانيون بالبحث في كل شيء في السماء وفي الأرض واتجه اهتمام العقلاء إلى التأمل في الطبيعة والبحث فيها، غير أن توجهات الفكر الفلسفي اليوناني ما لبث أن شهد تغيرا خاصة في مدينة أثينا مع نهاية القرن الخامس قبل الميلاد سنجد أن الأثينيين اتجهوا إلى الاهتمام بالإنسان ونشاطاته، وكانت هذه التفاصيل هي التي أدت إلى ولادة الفكر الاجتماعي النظري على يد السوفسطائيين الذين اتصفوا بتنوع الثقافة فهم لم يكونوا مدرسة فلسفية ذات آراء خاصة بل كانوا طائفة من المعلمين اتخذوا التعليم والتدريب حرفة يلقون سلسلة من المحاضرات بخاصة في الخطابة وفن النجاح في الحياة من أبرزهم: بروتاغوراس، غورجياس، أنتيغون ...الخ.

سنحاول عرض بعض آراء السوفسطائيين فنجد أن أنتيغون في كتابه " عن الحق" تعرض إلى مسائل وموضوعات طبيعية وفلسفية ميتافيزيقية وأخلاقية وسياسية وكان يعتقد أن هناك صلة بين العلم الطبيعي- الفيزيائي والتفكير الأخلاقي ويمكن استخلاص نتيجتين اجتماعيتين لفكر أنتيغون :

- أن قانون الطبيعة يبيح لكل فرد أن ينشد الحياة والراحة ولكن (القانون الوضعي) الذي هو وليد الرأي والفكر ويطلب منا أن تفعل أشياء غير طبيعية.

- بما أن البشر متساوون في صفاهم الجسمانية ويتشابهون في خصائصهم الطبيعية وبناء على ذلك كله لا أساس للتمييز بين الناس حسب قومياتهم وأعراقهم فكل الناس سواسية.

كما وصلنا فكر السوفسطائيون عن طريق كتابات أفلاطون، يقول " ثراسيماخوس " الذي اعتقد أنه لا وجود لشيء اسمه الحق الطبيعي بل هناك فقط الحق المصطنع ما تصنعه أقوى سلطة في الدولة وفق ما ترى أن فيه مصلحتها الخاصة وأن كل ما تقرره هو الحق كما أورد لنا أفلاطون مجملا لأراء سوفسطائي آخر اسمه "غلوكون" يمكن أن نستخلص من أقواله أول طرح لنظرية "العقد الاجتماعي" حيث يقول " أن ارتكاب الظلم خير بحكم الطبيعة ، أما معاناة الظلم فهو شر غير إن هذا الشر هنا أعظم من الخير وعندما يرتكب الناس الظلم ويقاسون من الظلم وتتوافر لديهم تجربة الحاليين وعجزهم عن تجنب أحدهما وممارسة الوضع الآخر عندئذ يرون أن من الأفضل الإتفاق على أن لا يرتكبوا الظلم أو يعرضوا أنفسهم له ومن هنا تنشأ القوانين والمواثيق المتبادلة.

اعتقد كاليكس أن الطبيعة هي القاعدة السليمة للحياة الإنسانية وإذا سرنا على هذه القاعدة كما ينبغي فأننا نجد أن السلوك الاجتماعي والأخلاقي يتضمنان (القوة) وبما أن أفراد البشر لا يتساوون في مدى امتلاكهم القوة وتمكنهم من استخدامها لتحقيق أغراضهم فإن معنى هذا أن عدم المساواة هي القاعدة الطبيعية وهذا بدوره يعني أن أفراد البشر بالطبيعة ليسوا سواسية إن القوي ينال أكثر من الضعيف أما فكرة المساواة فإن العرف هو الذي بوجدها لذلك فالطبيعة والقانون حسبه متعارضان.

ب -الفكر الاجتماعي لدى أفلاطون (427- 347 ق.م)

يمكن القول أن أول بحث مستفيض في الشؤون الاجتماعية عند اليونان نجده في كتابات "أفلاطون" وقد اعتقد أفلاطون أن أفراد البشر يضطرون إلى التجمع والعيش بصورة جماعية- مشتركة لأن الفرد الواحد لا يستطيع بمفرده أن يفي بمتطلبات الحياة الضرورية وإنما لا بد من التعاون العديد من الأفراد ، والأسرة عدها أفلاطون بمثابة الوحدة الأساسية إلي تشكل المجتمع وقد كان يؤمن بأنه لا فرق بين الرجل والمرأة من حيث القدرات والمؤهلات والإمكانيات الجسمية والعقلية، اعتقد أفلاطون أن الطبيعة أو الله قد خص كل فرد بمواهب وإمكانات ومؤهلات معينة حيث أن أفلاطون كان يؤمن بأن الحياة الاجتماعية واستمرارها يقومان على أساس مبدأ تقسيم العمل ، وقد قام بدراسة نقدية للمجتمع القائم في أيامه وخرج بعدة عيوب منها: شيوع الجهل بالإضافة إلى عدم مراعاة التخصص وتقسيم العمل وثالثا الأنانية المسرفة والجشع

الناجمين عن تضارب المصالح الاقتصادية وقد اقترح العلاج الكفيل بإزالة هذه العيوب أولها المعرفة و مراعاة تقسيم العمل القائم على أساس أن لكل فرد مؤهلاته التي تؤهله للقيام بوظيفة معينة، أما علاج الأنانية والجشع فيكمن في مبدأ تطبيق الشيوعية لا سيما في أوساط الحكام.

اعتقد أفلاطون أن إنسان الفرد يتكون من جسم ونفس وقسم النفس إلى ثلاث قوى يؤدي كل منها وظيفة منها: القوة الشهوية التي وظيفتها ضمان استمرار الحياة وبقاء الجنس البشري فضيلتها (الاعتدال والعفة)، والقوة الغضبية التي مقرها القلب وظيفتها يتمكن الإنسان من الدفاع عن نفسه وحمايتها من الأخطار فضيلتها (الشجاعة)، والقوة الناطقة أو العاقلة ومقرها الرأس وظيفتها التفكير والتدبير فضيلتها (الحكمة)، وإذا تحققت هذه الفضائل الثلاث (العفة والشجاعة والحكمة) فستتحقق الفضيلة الرابعة وهي فضيلة العدالة وتبعا لهذا قسم المجتمع إلى ثلاث طبقات (طبقة المنتجين وظيفة أفرادها توفير وإنتاج مستلزمات المادية الأساسية، طبقة الجند وظيفة أفرادها توفير الأمان، طبقة الحكام وظيفة أفرادها إدارة أمور المجتمع.

ت - **الفكر الاجتماعي لدى أرسطو (384- 322 ق.م):** يمكن القول ابتداء أن الفكر الاجتماعي لدى أرسطو يتسم بسبب اعتماد فلسفته على نباهة عقله السليم والحكمة المتوارثة وركونه إلى الواقع المعاش أورد أرسطو آراءه الاجتماعية في كتابه " السياسة" انطلق أرسطو في تفكيره الاجتماعي من الإنسان الفرد بوصفه " حيوان سياسي واجتماعي " وهذا ما يدفع بالإنسان إلى الاجتماع بغيره فإن احتياج الإنسان إلى الكثير من الحاجات الضرورية لاستمرار حياته يدفعه إلى الاجتماع، ومن خلال الاجتماع الرجل بالمرأة تتكون أولى أشكال الاجتماع البشري ممثلة بالأسرة ونتيجة لاجتماع عدة أسر تكون لنا القرية، وتعد الأسرة برأي أرسطو الوحدة الأساسية وقد ميز بين مكانة الرجل ومكانة المرأة فالأسرة برأيه تكون برئاسة الرجل لأن الطبيعة حبته العقل الكامل لذا فإن تدبير أمور البيت من اختصاصه وحده أما المرأة فيعتقد أنها أضعف من الرجل جسما وأقل عقلا وأن وظيفتها العناية بتربية الأطفال وقد صنف أفراد المجتمع البشري عموما إلى صنفين الأحرار والعبيد وكان يعتقد أن الطبيعة هي التي توجد أسباب التمييز بين أفراد هذين الصنفين وتبعا لذلك اعتبر أرسطو الرق نظاما طبيعيا وهو يعرف العبد بأنه "آلة حية" وقد سار أرسطو على نهج أستاذه أفلاطون في الاهتمام بالمجتمع الأفضل الذي تتطلع البشرية إلى العيش في كنفه وتسعى إلى تحقيقه على أرض الواقع لكن أرسطو عارض أستاذه ونقده بشكل شديد (إقامة مجتمع فاضل نموذجي مثالي) وقد خلص أرسطو إلى أن المجتمعات تتنوع أشكالها تبعا لتنوع أشكال الحكومات.

2 - الفكر الاجتماعي عند الرومان:

يتميز الفكر الاجتماعي الروماني بالاهتمام بالجوانب العملية التطبيقية أكثر من الجوانب النظرية المجردة سواء منها التأملية أو المثالية أو التحليلية الواقعية وقد كانت اهتمامات هذا الفكر تنصب على العلاقات الاجتماعية والأنماط السلوكية، وقد تضمن هذا الفكر اتجاهين بارزين أولهما تمثله الفلسفة الأخلاقية العملية بشقيها (الأبيقورية – والرواقية) وثانيهما يتضمن الجهود الفكرية التي انبثقت عنها مجموعة القوانين الوضعية .

- الأبيقورية مدرسة يونانية في الأساس، لكن لها أتباع كثيرون من الرومان وهي التي أسسها أبيقور وهو فليسوف يوناني (341-270 ق.م)، وكان تصورها عن المجتمع يخالف تصور المجتمع عند الرواقية حيث يرى روادها أن كل فرد يردك مصلحته الذاتية لكنه لا يستطيع تحقيق مصالحه إلا إذا كون علاقات اجتماعية مع غيره وقد أدت هذه الفكرة إلى ظهور فكرة العقد الاجتماعي، كما رأت الأبيقورية أن المجتمع إما يكون إغريقيا أو بربريا.
- أما بالنسبة **للمدرسة الرواقية** فهي الأخرى مدرسة يونانية وجدت لها أتباع كثيرين من الرومان وقد أسسها **زينون الستيومي** أو **الأكتيومي** اليوناني المولد، أسس هذه المدرسة أواخر القرن الرابع ق.م ، وقد اعتنق مذهب هذه المدرسة الكثير من فلاسفة الرومان وظل فكرها سائدا حتى نهاية الإمبراطورية الرومانية، وقد اتفق الرواقيون مع أرسطو على أن الإنسان اجتماعي بطبعه ، ولا بد أن يكون اجتماعيا حتى تنمو شخصيته ويؤدي واجبه في المجتمع، وقد طور الرواقيون فكرة المجتمع العالمي، والمواطن العالمي ومن ثم آمنوا بالأخوة الإنسانية أو الأخوة بين الصفوة على الأقل.

ومن أبرز مفكري هذه المدرسة خطيبهم المشهور "شيشرون" وكذلك "ابكتيت" والامبراطور "مارك أوريل" وهؤلاء الثلاثة طوروا فكرة القانون الروماني الذي عرف عند المشرعين " بالقانون "البريتوري" كما طوروا المبادئ العامة التي عرفت في الفكر الاجتماعي بمبادئ القانون الطبيعي، فنجد أن الإمبراطور مارك أوريل قد ألغى صنوف الظلم التي كان يعاني منها الرقيق وأضفى عليهم شخصية إنسانية أخلاقية فأصبح عضوا يتمتع بكافة حقوق المواطنة.

أثرت الأخلاق الرواقية في مجال الأسرة فعارضت السلطة المطلقة للآباء وأتاحت بعض الحرية لأفراد الأسرة فعلم يعد الابن ملكا لأبيه ولم تعد الزوجة غريبة عن شؤون منزلها وأسرتها فأصلح الإمبراطور كثيرا من التشريعات القديمة وحاول ملاءمتها مع كرامة الحياة الإنسانية كما أدخل تعديلات على قوانين الوكالة والوصاية.

ثانيا: الفكر الاجتماعي الأوربي في العصور الوسطى:

كانت الفلسفة المسيحية في طور النشأة والتكوين في الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية الرومانية في طريقها للانهيار والتدهور وقد كان أهم ما كرسته المسيحية وأولته غايتها الفائقة فكرة المساواة بين الأفراد، فلقد هاجموا الرق واعتبروه يتعارض مع القوانين الإلهية، وقد تميزت الفترة الوسيطية في أوربا بظهور شخصيتين بارزتين ساهما بآرائهما في صياغة الفكر المسيحي متأثرين بالفلسفة اليونانية وسنحاول تلخيص أبرز أرائهما في الفكر الاجتماعي.

أ - الفكر الاجتماعي عند القديس أوغسطين (354- 430م)

سعى أوغسطين خلال القرن الخامس ميلادي إلى صياغة الفكر المسيحي وتنظيره متأثرا بالتراث الفلسفي اليوناني خاصة فلسفة أفلاطون، فهو يمثل الفلسفة المسيحية في قرونها الأولى وقد لعبت التحليلات التي وردت في مؤلفه "مدينة الله" دورا كبيرا في الفكر الاجتماعي حيث عالج الحق الطبيعي والحق الإلهي وشرعية السلطة السياسية والسلطة الدينية والنزعة الإنسانية ودور العقيدة الدينية في إعلاء العلاقات البشرية وفقا للمبادئ الأخلاقية السامية كما ناقش واجب السلطة السياسية في ضرورة العمل على تحقيق العدالة الاجتماعية.

ومن مقومات المجتمع في نظره اشتراك الأفراد في الفكر والعاطفة مما يقيم بينهم نوعا من الوحدة المعنوية، ويرى أن كل فرد ينتمي إلى عالمين العالم الأرضي العلماني والعالم السماوي الإلهي وتتجاذبه قوانين هذين العالمين وتشريعاتهما، العالم الأرضي يجذبه لمغريات تجربة لخطيئة الإثم والسماوي يجذبه إلى تعاليم السماء المقدسة والجهاد في سبيل تحقيق السعادة عن طريق العدالة الإلهية، وقد جعل هذا التمييز أساسا لفهم التاريخ البشري الذي يخضع باستمرار لاحتكاك هاتين الجماعتين فالأولى هي مدينة الشيطان الذي يتميزون بالأنانية ويميلون إلى إيثار أنفسهم أما مدينة الله فإن أخلاقهم تكون أخلاق سكان العالم السماوي وأن هاتين المدينتين ستخلطان وتتداخلان طوال الحياة ولا تنفصلان إلى يوم الحساب.

والحياة الاجتماعية تعتمد في بدايتها على مبادئ القانون الطبيعي وحينما يقع الناس في الخطيئة يصبح القانون الوضعي ضرورة اجتماعية، وما يتضمنه من إجراءات جزائية وعن هذه الضرورة استمدت السلطة الأرضية مبررات وجودها واستطاعت أن تفرض نظم الرق والملكية الفردية وغيرهما من الأمور التي تعتبر عقابا من الله على خطيئة البشر، كما أنها من مستلزمات سلطة الدولة وركيزة للتنظيم الاجتماعي.

وعند تعرضه للملكية الفردية ارجع حق الملكية للذات الإلهية فالله هو المالك الحقيقي وهو الذي أسبغ هذا

الحق على الجنس البشري فالملكية ليست حقا طبيعيا أو قانونيا ولكنها ترجع لمصدر مقدس ومع ذلك فإن حماية الملكية من أهم واجبات الدولة، وينظر أوغسطين للرق نظرة مزدوجة فهو من وجهة نظر إنسانية هو نظام يحق إلغاؤه ومن وجهة نظر كونه نتيجة عقابية على خطايا البشر فهو نظام طبيعي يتماشى مع العدل الإلهي، ولما كانت الخطيئة لا تزال باقية فسوف تبقى الكثير من الآلام والآفات التي تعتبر الرق أحد مظاهرها الاجتماعية وزوال نظام الرق رهين بزوال التسلط والظلم والخطيئة وزوال هذه الظواهر الأخيرة لا يتم إلا حينما يتولى الله نفسه السلطة المباشرة الأمر الذي لا يمكن أن يقام في الحياة الأرضية بل حينما يرث الله الأرض ومن عليها وينتقل البشر إلى المدينة أو العالم السماوي.

ب -الفكر الاجتماعي عند توما الإكويني (1227- 1274)

يعد الإكويني أهم وأعظم لاهوتي وفيلسوف في العسر الوسيط في أوربا دعم الكنيسة بشكل كبير، كانت فلسفته تسعى إلى الوصول توحيد عام ونظام شامل مفتاحه الوفاق والتنسيق، واتقد أن المجتمع حاله حالة الطبيعة له أهداف وغايات تقتضي أن يقوم الأدنى بخدمة الأعلى وإطاعته في حين أن على الأعلى أن يسود الأدنى، ويضيف أن المجتمع يمثل في نظره مجموعة من الأفراد الذين تجمعهم المعاشرة المشتركة والخضوع المشترك لمجموعة من القوانين التي يجب أن تحقق العدالة والإشتراك في الهدف والمطالب ومن أهم مؤلفاته الاجتماعية " حكومة الأمراء" وهو كتاب يعكس شدة الصراع بين البابوية والأباطرة، والحكومة هي القوة التنظيمية في المجتمع وهي ضرورة اجتماعية تؤدي دور النفس في الجسد البشري فالحكومة تعمل على سلامة واستقرار المجتمع ووسيلة ذلك هي العمل والعمل نوعان:

- الأول داخلي: ويتضمن التشريع ووضع القوانين المنظمة للعلاقات وإقامة المساواة والعدالة وترويض رجال القضاء على مراعاة ضمائرهم وأن يكون العدل هدفهم الأول.
- الثاني خارجي: وهو العمل على الوقاية من الغزو والهجوم المباغت وقد أيد مشروعية الحرب واستخدام كافة الوسائل بما فيها الخداع واسترقاق الأسرى وغير ذلك.

وقد ذهب إلى أن السيادة السياسية هي سلطة من القوانين وهذه وظيفة كل أفراد المجتمع السياسي أو من يمثلونهم وقد أقر بمشروعية الملكية الخاصة إلا إذا ساد الفقر وعم الحرمان فتصبح الملكية عامة بين الجميع وقد اعترف بظاهرة الرق وسلم بها ورأى أنها تحقق دورا اجتماعيا أساسيا وهو عقاب البشر على خطاياهم، كما يضيف أن تحقيق الخير يتطلب وجود سلطة حاكمة تسير شؤونه واعتقد أن الحكم في عنق الجماعة الذي يسعى إلى الخير يعلو المجتمع الدنيوي لكن تحقيق ذلك يفوق طاقة البشر العاديين لذلك يجب أن يتولى هذه المهمة القساوسة لا الحكام.

قائمة المراجع:

1 - محمد علي محمد، تاريخ الفكر الاجتماعي الرواد والاتجاهات المعاصرة، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1999.

2 - نبيل عبد الحميد عبد الجبار، تاريخ الفكر الاجتماعي، دار دجلة، الأردن، 2009.

3 - نور الدين حاروش، تاريخ الفكر السياسي، دار الأمة، الجزائر، 2010.

4 - جان جاك شوفالييه، تاريخ الفكر السياسي من الدولة القومية إلى الدولة الأممية، تر: محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات، لبنان، 2002.

5 - عدنان السيد حسين، تطور الفكر السياسي، المؤسسة الجامعية للدراسات، لبنان، 2009.

6 - جان توشار وآخرون، تاريخ الفكر السياسي، تر: علي مقلد، الدار العالمية، لبنان، 1983.